Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 18:1 (1983

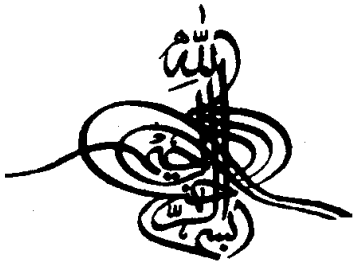

كلمة العـــدد

ان اكبر برهان وأسطعه ، وأفضل دليل وأقطعه على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى علو الرسالة التى جاء بها ، وعلى سمو شريعته السمحة السهلة البيضاء التى ليلها كنهارها ، هو القرآن العظيم الذى لاياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . فيشرع للناس حراسة دينهم وسياسة دنياهم ، ويضمن لهم سعادة الكونين ، وتتضمن أوراقه الهداية الربـــانيـــة الكاملةلكل من اهتدى بهديه وتنور بنوره . فهو مأدبة الله لخلقه ، وحبله المتين ، ونوره المبين ، وهو الشفاء النافع ، وعصمة لمن تمسک به ، ونجاة لمن اتبعه ، لايزيغ فيستتعب ، ولايعوج فيقوم ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد .

وهو الكتاب السماوى الوحيد الذي كفـل الله عزوجـل صيانتـه وحفظه من الضياع والتحريف والتغيير ، وأما الكتب السماوية الأخرى ، أو بتعبير أدق الطبعات الاولى من الكتاب الالهى ، فقد ضاعت بمرور الايام حيث أهملها أصحـابها ولـم يولوابهـا الاهتمـام الـذى أولاه المسلمون بالقرآن الكريم . فقد ورد فى مسند الامام أحمد بن حنبل أن

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

الله سبحانه وتعالى أرسل بضعا وثلاثمائة نبى مع كتاب أو صحيفة أو مجموعة من الصحف . وورد كذلك فى بعض الروايات أن الصحف التى أنزلت على سيدنا آدم عليه السلام كان عددها يبلغ الى عشرة ، وكذلك يروى أن بعض الصحف نزلت على سيدنا شيث عليه السلام وغيره من الانبياء القدامى ، فكانت سنة الله تبارك وتعالى منذ أن بزغ فجر التاريخ البشرى أن ينزل كتبه وصحفه فى كل عصر وفى كل مصر .

ولكن لم يبق من هذه الكتب والصحف شئ ، ولم تصل الينا الا أسماء بعضها ، ولا نعرف عنها شيئا ، ولا نعرف فى أى لغة كانت ، وما كان محتواها ؟ ولكن نؤمن بها ايمانا بالغيب ، فكلها من عند ربنا ، ولكن لايتمالك بعضنا الا أن يتساءل : فلماذا ضاعت ؟ ولماذا لم تصل الينا ؟ ولم لم يكتب لها الخلود والبقاء ؟ .

شاءت مشية الله عزوجل أن لاتبقى هذه الكتب ، ولا يكتب لها الخلود والبقاء ، لأن الذى أنزلها لم ينزلها لتكون دستوراً للحياة للبشرية كلها فتبقى الى أبد الآباد ، ولكنه تعالى أنزلها لأقوام خاصة ولبلاد خاصة ولعهود خاصة ، فكلما انقرض قوم انقرض كتابه ، وكلما ضاع بلد ضاعت صحيفته ، وكلما مضى عهد اندرس كتابه ، وأحدث كتاب سماوى غير القرآن الكريم وأقلها عمرا بعد القرآن هو الانجيل ، ولكنه ضاع خلال أعوام تعد بالبنان بعد رفع سيدنا عيسى عليه السلام الى ربه .

وأما الاناجيل الأربعة التى تتوفر الآن لدينا فلا صلة لها بالكتاب السماوى الذى أنزل على عيسى عليه السلام ، فانها لاتعدو على أن تكون مجموعة روايات ضعيفة عن سيرة سيدنا المسيح

وبعض أقواله وخطبه ، وانتخبت هذه الاناجيل الأربعة من بين الاناجيل السبعين التى قام بتأليفها أحبار النصارى ودونوا فيها مذكراتهم عن حياة قائدهم الروحى ورسالته . ولا ندرى ماهو المعيار الذى جعل العلماء المسيحيين أن يختاروا هذه الأربعة من بين تلك السبعين ، فالعلماء الأربعة الذين ينسب اليهم تدوين هذه الاناجيل الاربعة ليسوا من حواريى سيدنا المسيح ، ولم يلقه أحد منهم ولم يره فى حياته ، بله صحبته ورفاقته اياه .

فكل هذه الروايات مهما بلغت من الوثاقة والاصالة والاعتماد مبلغا ولكنها لاتزيد مرتبة عمانسميه من الروايات عندنا بالمراسيل والمعاضيل الضعيفة والتى تنتهى روايتها وينقطع سندها على الضعاف المتروكين من صغار أتباع التابعين . بل تزيد هذه الروايات الضعيفة مكانة ومرتبة من تلك الاناجيل ، فان كل من له المام بعلم الحديث يقطع القول بأن كل هذه الروايات نقلها ناقلوها ورواها راووها باللغة العربية ، وأما الأناجيل الاربعة وما عداها من الاناجيل البائدة فلا يستطيع أحد أن يقطع القول فى اللغة التى كتبت فيها هذه الاناجيل .

ولايقولن أحد أن هذه الكتب المقدسة القديمة ، وفى مقدمتها الانجيل ، ضاعت لمر العصور وطول الأمد ، وكيف يقال ذلك ؟ فاننا توارثنا كتبا أكثر قدامة من هذه الاناجيل ، فعندنا الياذة هوميروس ومحادثات أفلاطون وملحمة مهابهارت وغيرها من الكتب القديمة .

★ ــ ★ ــ ★ ــ ★

ان نبى الاسلام ، رحمة للعالمين محمد عليه الصلاة والسلام ، آخر الانبياء و خاتم الرسل ، فلا نبى بعده ، وأمته آخر

الأمم وأوسطها فلا أمة بعدهالتحمل الرسالة السماوية ، ودينه أول الأديان و آخرها ، وهو الدين عندالله ، والرسالة المحمدية آخر الرسالات ، والشريعة الاسلامية آخر الشرائع وأتمها واكملها ، واللغة التى نزل بها هذا الكتاب وجاءت بها هذه الشريعة آخر اللغات ، فان الذى بعثها واختارها هو الأول والآخر ، وله الحمد أولا وآخرا .

ان وعد الله عزوجل لحفظ القرآن الكريم وابقائه مادامت الأمة الاسلامية باقية يتجلى فى عدة نواح : حفظ متن القرآن كما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكما بلغه الى كافة البشر ، لاوكس فيه ولا شطط ، حفظ معانيه التى أودعها الله فيها ، حفظ تفسيره وبيانه الذى قام به الرسول عليه الصلاة والسلام ، حفظ شرح مبادئه وطرق تطبيقها التى جاءت بها السنة ، حفظ رسالته الجامعة التى قام العلماء بنشرها ، حفظ الأمة التى تؤمن به وتعمل به ، أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ، حفظ العلوم والمعارف التى انفجرت من القرآن الكريم والتى يبلغ عددها ، فى رأى القاضى أبى بكر بن العربى ، أربعمائة علم ، والتى يقول عنها الامام الشافعى انها كلها شرح وتفسير للسنة ، والسنة شرح وتفسير للقرآن ، ثم حفظ وجوه الاعراب والقراءات ، وأخيرا لا آخرا حفظ رسم القرآن .

أجل ، ان الله تعالى هو الذى تولى حفظ كتابه ، وهوالذى ضمن بقائه مادامت الأمة الاسلامية رافعة لواء الاسلام ، ولكن طوبى لمن اشترك فى هذه الخدمة المباركة ، وبالسعادة من انضم الى هذه السلسلة الذهبية المباركة التى تبدأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام البررة من المهاجرين والانصار

ومن تبعهم بالاحسان الى يوم القرار ، وكانوا أناسا عملوا ماعملوا لوجه الله ، ولم يريدوا من البشر جزاءا ولاشكورا ، وأيقنوا أن أجرهم ليس الا على الذى فطرهم . فلم يطالبوا اجرا ، ولم يقتضوا مالا ، ولم يتزيدوا بعملهم وجاهة ولا سمعة ، رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا .

★ ــ ★ ــ ★ ــ ★

ان من تصفح أحوال اللغات واستقرى تاريخ الآداب يرى أن اللغات كلها دائمة التغير والتبدل ، فتتغير كلماتها ، وتتبدل أساليبها، وتتجدد أمثالها ، ولا تبقى لغة على وتيرة واحدة أكثر من مائة سنة أو أقل . فاذا حاولنا مثلا أن نقرأ كتابا الف باللغة الأردوية قبل أربعة قرون لانكاد نفهمها أو ندرک معانيها ، وذلک لأن الكلمات التى وردت فيه سوف نجدها قد أصبحت غير مفهومة ، والاساليب التى استعملت فيه قد نراها صارت متروكة ، والامثال التى ضربها المؤلف كأنها أصبحت نسيامنسيا ، أو كأنها لم تک شيئا .

وليس لهذه القاعدة العامة استثناء الا اللغة العربية ، فلا زالت على نفس الوتيرة التى كانت عليها وقت نزول القرآن ، فكلماتها وهجاؤها وحروفها وقواعدها وأمثالها التى كانت توجد قبل ألف سنة نجدها اليوم كما كانت ، والمعاجم والقواميس العربية التى بدأ وضعها أعلام العربية وأئمة اللغة امثال الخليل بن أحمد الفراهيدى وسيبويه والفراء والكسائى وأمثالهم تستعمل اليوم فى جميع الاوساط العلمية ، والامثال التى وردت فى الشعر العربى قبل نزول القرآن نجدها فى الشعر المعاصر أيضا ، ولازال الشعر

الجاهلى الـذى تغنى به العـرب وأنشدوه فى عصر الملك الضليل ـ أشعر الشعراء وقائدهم الى النار ـ معيارا للشعر العربى المعاصر ، فما ظنك بلغة القرآن التى تفـوق جميـع المعايير البشرية والمستويات الادبية . فاتفقت كلمة أهـل الاسلام ، وليس أهل الاسلام فحسب ، بل أجمع عليه قاطبـة البشـر ، علـى أن بلاغة القـرآن وفصاحتـه لايدانيها كلام عربى ، مهمـا ارتفعت درجته ومهما بلغ من العلو مبلغا.

هذه هى بعض النواحى للمشروع الالهى الازلى الـذى شاءتـه مشيئة الله العلى القدير لحفظ كتابه المبين ، وانما هى غيض من فيض ، وقطرة من محيط ـ وليس التاريخ الاسلامى الطويل الا شاهـد عدل وصـدق عـلى نجاح هذا المشروع نجاحا كاملا . فبـاءت جميـع المحاولات التى قام بهـا أعـداء الاسلام وأعداء القـرآن للنيـل من شـأنه وللحط من مكانته بالفشل التام ، ولم يبق لمحاولاتهم الخبيثة أى أثر ماعـدا ذكر يسير فى كتب التاريـخ . فقـد ضعف الطالـب والمطلوب .

ولكن كانت مشيئة الله أن تستمر هذه المحاولات الدنيئة علـى أيدى تلامذة ابليس ، لتفشل فى كل مرة ، لتـلهر قدرة الله العلـى الحكيم وتحبط جميع هـذه المحاولات وتـتم الحجة على الشياطين وأولياءهم ، ونرى مظاهر هذه المحاولات من يوم لآخـر ، فانها تتجلى فى صـورة وأخرى ، ولكن من حملة القرآن وعلومه فى كل عصر من العصـور خلف عدول ، ينفـون عنه تحـريف الغالين وانتحـال المبطلين وتأويل الجاهلين .

فمـن النـاس من يسـئ الظـن فى كل مـا أنتجتـه قـرائـح المسلمين ، وتحيط به شـكوكه وريبه ، فهـولا يرى الاشيـاء الا

بالمنظار الأسـود القاتـم ، واذا تحدث عن الاسلام تحدث بلسان المتحرج المتشكك ، ومن الناس من يبث الشكوك فى حجية السنة النبوية بنشر ما انتحله اعداء الاسلام من أدلة فاسدة وحجـج داحضة ، ومنهم من ينـكر هذا الاصـل ومنهم من يرفض ذاك الاصـل مـن الاصـول الاسلامية ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شـتى . ولكن وعدالله سوف يتم ، وقدر لها الفشل وخيبه الأمل ، و سيهزم الجمع ويولون الدبر ، بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر .

★ ـــ ★ ـــ ★ ـــ ★

ان من النماذج الأخيرة لهذه المحاولات لبث الشكوك واثارة الشبهات فى حجـية السـنة النبـوية كتابـا طبـع حـديثـا فى الـولايات المتحـدة باسم „ الترجمة المعتمدة لمعانى القرآن باللغة الانكليزية „ ، وقام بها من يتسمى بالدكتور رشاد خليفة الذى ينتمى الى مصر ، وحصـل عـلى الدكتوراه فى علم الكيمياء ، وهو الآن امام فى أحد المساجد بمدينـة تكسون بالولايات المتحدة .

والترجمة والتعليقات التـى أردفها المـؤلف بها مليئة بالأخطـاء الفاحشة الشنيعة التى تبين اما عن جهل المترجم أو تدل على عدائه للاسلام وبغضائه للمسلمين ، ويشعر القارى فى كل صفحة من تعليقاته أن مراجل العداوة تغلى فى قلب المؤلف و نار البغضـاء تلتهب فى صدره .

واذا تتبع القارئ المحايـد كل مـاورد فى هـذه التـرجمة من جواش و هـوامش وتعليقات لوصل الى نتيجة حـاتمـة ، وهـى أن المـؤلف يرى أن السنة النبوية وثروة الحديث النبـوى الرائعة القيمة التى لاتدانيها العلوم والمعارف الدينية الأخرى عند الأمـم فى دقة

أسلوبها ، ولا تضارعها فى حكمة منهجها ، ولا تباريها فى سعة آفاقها وبعد مداها ليس لها فى الشريعة القرآنية من مكانة . ولايمل المؤلف من تكرار كلمة „ الكذابين „ و „ عبدة الاصنام „ التى يطلقها على أهل الايمان الذين يؤمنون بأن السنة النبوية الشريفة أصل ثان من أصول الشريعة وأحد المصدرين الاصليين من مصادر الشريعة .

ويدعى المؤلف أن الاحاديث أساسها على الوهم والظن والتخمين، ولكنه لايأتى على ذلك بدليل ، ولايحتج بحجة ، بل أساس ادعائه كله هو الوهم والظن والتخمين ، فانه لايضرب لما يتقوله من الاقاويل الفاسدة مثالا يدعم به زعمه الباطل ، بل نراه كالغريق يغطيه الموج فيتشبث بالطحلب ويتعلق بأرجل الضفادع طمعا فى الحياة ، فيقول ان الاحاديث افتعلها اعداء الاسلام وانتحلها المنافقون الذين كانوا يريدون أن يضلوا المسلمين عن سواء السبيل ، ويسمى المدافعين عن السنة النبوية الشريفة بعبدة محمد (صلى الله عليه وسلم) الذين يعبدون من دون الله ويصلون نارا حامية . فالخلاصة أن الكتاب مملىء بانكار السنة ورفض الاحاديث والمحاولات النكراء للحط من شخصية الرسول الحبية ، عليه أفضل صلاة وأكرم تحية .

وندعو الله تعالى أن يهدينا جميعا الى سواء السبيل ، وأن يقينا من وساوس الشيطان واوليائه ، ويوفقنا جميعا لما فيه رضاه ، ويستعملنا لخدمة دينه وحزبه . فان حزب الله هم المفلحون .

محمود أحمد غازى